

الرسائل الأدبية

من القرن الثالث إلى القرن الخامس

للهجرة

(مشروع قراءة إنشائية)

تأليف : صالح بن رمضان
نشر : كلية الآداب منوبة - 2001
تقديم : محمد علي القارصي

كيف تنشأ الكتابة الأدبية عامة وكيف يتشكل في آفاقها الجنس الأدبي خاصة وما هي العوامل الفاعلة في هذا التشكل ؟

حاول صالح بن رمضان أن يجيب عن هذه الأسئلة الأساسية وعن غيرها في أطروحته التي عنوانها : «الرسائل الأدبية من القرن الثالث إلى القرن الخامس للهجرة - مشروع قراءة إنشائية».

إنطلق المؤلف من مقدمة افضت إلى أربعة أبواب في كل منها تمهيد وخاتمة وتلت الأبواب الكبرى خاتمة عامة عقبته قائمة المصادر والمراجع ثم عرض للفهارس.

أمّا هذه الأبواب الكبرى فهي على التوالي :

- الباب الأول : مدونة البحث وأأسسه.
- الباب الثاني : الرسائل والأجناس الأدبية.
- الباب الثالث : التداخل بين الأجناس في الرسائل الأدبية.
- الباب الرابع : الرسائل الأدبية وأساليب الكتابة.

قام الباب الأول على ضبط مدونة الرسائل الأدبية النثرية والإحالة على مصادرها الأمهات كما قام على استعراض أسس البحث المنهجية ثم النظرية وأفضى كل ذلك إلى تحديد مفهوم إجرائي محوري هو «مقام الترسل» الذي اعتمده المؤلف حجر زاوية تقوم عليه وبه إنشائية الرسائل الأدبية.

ومقام الترسل الأدبي «هو السياق الذي يتم فيه الكلام أو المرجع الذي يراعيه المتكلم في خطابه» (ص 125) ومن عناصره الأساسية «اجتماع التخاطب الثنائي وتباعد المتخاطبين في المكان». (ص 132).

مثل تحديد هذا المفهوم الإجرائي منطلقا وأداة بها شرع المؤلف في ترسم «تاريخ الصلة بين الرسائل والأجناس السردية في النشر العربي القديم». إن البحث عن هذه الصلة في أصل منبتها وعميق نشأتها مشغل أساسي قاد إلى النظر في حضور الرسائل في «النادرة الأدبية» أولا ثم في «القصة على لسان الحيوان» وفي «الخبر الأدبي» وأخيرا في «أدب السيرة».

وكان من نتائج البحث عن هذه الصلة حضور الرسائل في كل هذه الأجناس التي عاجلها المؤلف وذلك لما هي عليه من مرونة الاندراج في الأجناس الأخرى وبين المؤلف كيف أكسبت هذه المرونة النصوص المندرجة فيها تنوعا في أشكال التلفظ أدى هو بدوره إلى تكوين فضاء الخطاب السردية بعناصره المختلفة وإثرائه.

إن الرسائل الأدبية إذا ما اندرجت في جنس آخر مغاير لها أكسبتها نجاعة في خلق فضائه السردية وساعدته على تطويره.

ومثلما ساهمت الرسائل الأدبية في دعم مقومات الفضاء السردى وإثرائه نرى في الفصل الثانى (من الباب الثانى) كيف استقبلت الرسائل الأجناس السردية الأخرى (القصص الخيالية، أدب الوقائع، الحديث عن النفس، الأجناس الخطابية ...) وأخصبتها لما أضفاه عليها مقام الترسل من «صبغة الإخبار» و«الإيهام بمطابقتها للواقع» على النحو الذى يوهم به السند فى الجنس السردى ذى القيمة المرجعية.

ومن المدونات التى تم تحليلها فى هذا السياق : «التحدث عن النفس فى الرسائل» (ص ص 218 - 240).

ونشير، فى هذا السياق، بصفة خاصة إلى ما يمكن أن يستفيد منه دارس جنس «الحديث عن النفس» والأجناس الخطابية فقد تمكن المؤلف من تتبع بذور هذين الجنسين فى مواطن قصية ثم رصد ما طرأ عليهما من تطورات كما احتضنتهما الرسائل وأضاف صالح بن رمضان إلى مقصده الإنشائى الآتى مقصدا إنشائيا تاريخيا.

يقوم الباب الثالث من الأطروحة (ص ص 393 - 496) على تبين إنشائية الرسائل وفحص مكوناتها من خلال التداخل الحاصل بين نصوص الرسالة والنصوص الخارجة عنها المتقاطعة معها وقد جعل المؤلف التداخل نوعين صريحا وضمنيا.

تعتبر المحاكاة الساخرة من أهم مظاهره التداخل الضمنى وهى مجال خصيب يكشف مستويات التداخل بين النصوص. واستعرض المؤلف، عبر الاستشهاد المقارن، مواطن المحاكاة فى «المفاخرة الساخرة» و«التولية الساخرة» و«التعزية الساخرة» ... منتهيا إلى نتائج من أهمها تغير جنس الرسائل باستمرار و«التهامه سائر الأنظمة الأجناسية» (ص 466) فى الفترة المعنية بالدرس.

أما الباب الرابع ففيه يتقصى المؤلف آفاق «مشروع القراءة»، يتدرج من حصر أشكال التداخل وضبطها إلى عرض أساليب الكتابة الأدبية فى

الرسائل : ينطلق من تحليل «أسلوب الدعاء» منتهيا إلى «الصورة الفنية»
بذلك يستكمل التسلسل المنهجي والاستقصاء الإنشائي لمادة مدوّنته.

من مزايا هذه الرسالة الجهد الواضح الذي بذله مؤلفها في ترتيب
أبوابها وتنسيق أقسامها تنسيقاً تأليفياً ساعد على بلورة أطروحته
والاستدلال عليها في كل لحظة عبر تحليل كل جزء من أجزائها حتى
انتهت كلاً يشدّ أجزاءه خيط من حسن الاستدلال والتبصر بشروط
نجاحته.